الوجدان

ميزة الانسان

للأستاذ سلامة موسى

أحب أن أزور حديقة الحيوان بالجيزة حيث أتأمل موكب التطور . ولكني حين أقف أمام حيوان ما أجدني أتأمله لا لأعرفه هو ولكن لأعرف الانسان : لأعرف نفسي أنا في وجدان . أما هو ففي ذهول . أنا واجد نفسي في هذا الكون . أما هو فذاهل كأنه في حلم . ووجداني هو شيء فوق العواطف فإن الحيوان يغضب ويجوع ويشتهي ويخاف ويغاضب . وجميع هذه العواطف أحسها أنا أيضاً في الظروف التي تتطلبها . ولكني حين أحسها يزول عني وجداني بقدر إحساسي لها . فاذا كان إحساسي غامراً مطبقاً فليس هناك وجدان وإذا كان صغيراً جزئياً فإني أجد نفسي .

أجدني إذا غضبت كثيراً هذيت بالشتائم وقد أرفس بقدمي بلا تعقل ، بلا وجدان ، كأي حيوان . لأن العاطفة تغمرني فاذا هدأت أي إذا خفت العاطفة عاد إليّ وجداني ، فأفكر وأتعقل .

ليس للحيوان إحساس تاريخي لأنه يعيش بعواطفه . ولكني أنا أعيش في التاريخ ، لي أمس وغد . ولي أبعاد زمنية أذكر الفراعنة والرومان والعرب قبل ألوف السنين . وأبعاد جغرافية أنسها كل يوم حين أقرأ عن أخبار الحرب في كوريا أو البترول في العراق أو تأميم المناجم في انجلترا .

وأعظم ما يزيد وجداني هو اللغة التي أكسبتني معاني مختلفة من كلمات مختلفة . فإن كلمة « المروءة » مثلاً تنقلني من حدودي الفردية الذاتية إلى آفاق اجتماعية وبشرية ودينية وعندما أشيخ ويبدأ خرف الشيخوخة في التسلط على عقلي فإن ذلك لن يتحرك إلا من سبيل النسيان للكلمات التي تعين لي المعاني وتزيد وجداني . أما إذا بقيت هذه الكلمات في ذاكرتي فإن هذا الخرف لن يجد سبيلاً إليّ . ولذلك يجب أن نذكر أن للغة قيمة كبرى في صحة النفس سواء من ناحيتي الكم والكيف .

* * *

اني أقارن بيني وبين الحيوان وقت الظلام في الخلاء . أنا أحس بل « أجد » أن دائرة نظري قد ضاقت على الأرض بسبب الظلام . ولكن وجداني بهذا الكون قد زاد أيضاً لأني أرى نجوماً تبعد مني ملايين السنين الضوئية في فضاء لا ينتهي . هذا هو وجداني أقصى الوجدان . ولكن الحيوان يحس أن الظلام يحوطه فقط . وهو لذلك يخاف . وليس عنده غير عاطفة الخوف .

وكما أن اللغة قد زادت وجداننا أو هي علة وجداننا فإن دراستنا للعلوم قد زادته أيضاً . فنحن نقرأ الجريدة اليومية بإحساس تاريخي فنتأمل الحوادث ونقارن بين الأمس واليوم وبين اليوم والغد . وحين ندرس الطبيعيات مثلاً تكسب وجداننا النظرة التلسكوبية الفلكية أو النظرة الميكروسكوبية الذرية .

والفرنسيون يطلقون كلمة واحدة على الوجدان والضمير : « لا كونسيانس » لأن الوجدان يؤدي الى الضمير كما يؤدي الى التعقل . وذلك لأننا ما دمنا منساقين بالعاطفة : حب وغضب وكراهة وإقبال وللة وغيرة وخوف ، فإننا لن نجد أنفسنا أي لن نقف كي نتأمل ونقارن ونستنتج .

* * *

اعتبر الدقائق التي نقضيها في الاتصال الجنسي . إنها دقائق العاطفة المتأججة حين نكون في جنون وقتي ليس فيه أي تعقل . وسائر عواطفنا تجري على هذا المعنى ، وإن كانت أخف حدة وأقل جنوناً .

ونحن البشر نتفاوت في درجة الوجدان. فالمتعلم أكثر وجداناً من الأمي لأن المعارف والعلوم زادت وجدانه. وإينشتين أكثر وجداناً منا لأنه يتصوّر الكون [illegible] التي لا نصل إليها نحن. وقارئ الجريدة اليومية اليقظ أكثر وجداناً من القارئ [illegible] المجلة المصورة.

وقد قلت إن الوجدان ميزة إنسانية. ولكني أرى بوادرها في الكلب وفي حيوانات أخرى، بوادر فقط. وحين أتأمل الأسد في قفصه في حديقة الحيوان أعتقد أن وجدانه أو بوادر وجدانه قد ألغيت بالقفص. لأنها حرمت من اختبارات الغابة والصيد و[illegible] والخطأ والتجوال والاقدام والهرب. وكل هذا كان جديراً بأن يكسبه شيئاً من الوجدان.

* * *

بل ماذا أقول، إني أحياناً أتأمل بعض الناس فأجد أنهم ذاهلون مثل هذا الأسد في قفصه. والقفص الذي يعيشون فيه هو هذا البيت وهذا المكتب وهذا الشارع بينهما يقطعونه ذهاباً وإياباً كل يوم ولا يقرأون الجريدة. ولا يشتركون في نشاط علمي أو أدبي أو اجتماعي، ولا يخرجون الى الريف ولا يسهرون ليلة كاملة في الخلاء.

ولو كنا على وجدان تام لكنا على سعادة تامة. لأننا عندئذ نتخلص من تراث العواطف الحيوانية، وأيضاً نعرف جميع الأسباب ونقدر جميع النتائج. وهذا بالطبع محال. ولكن على قدر وجداننا يكون المقدار الذي ننال من السعادة. لأننا نتعقل عندئذ جميع الأشياء. ومتى تعقلناها تماماً لا يعود للعاطفة مكان.

* * *

والجنون هو فقداننا للوجدان. وهو يبدأ «نيوروزاً» أي احتدام عاطفة معينة كالخوف أو الغضب أو الكراهة أو الحب ثم ينتهي «بسيكوزاً» أي اختلاط العقل وزوال الوجدان. بل ان الوجدان قد زال قبل ذلك باحتدام العاطفة أي «بالنيوروز».

ومهمة التربية هي تغليب الوجدان على العاطفة. لأن معظم أخطائنا وكوارثنا ينشأ من السلوك الذي يبنى على انفعالنا العاطفي بدلاً من تفكيرنا الوجداني.